International Academic Journal for Arabic Language and Literature
2(1)(2020)1-29

المجلة الأكاديمية العالمية للغة العربية وآدابها
٢(١)(٢٠٢٠) ١-٢٩

الرايه الدولية الالكترونية
INTERNATIONAL ELECTRONIC ALRRAYIH

سيميائية اللغة الصامتة للعين في

صحيح البخاري

إعداد

أ.د. جهاد يوسف العرجا
أستاذ النحو والصرف

أ. عدي عاطف زعرب
ماجستير النحو والصرف

الجامعة الإسلامية–غزة

١٤٤٠هـ–٢٠١٩

تقديم

الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، والصلاة والسلام على نبينا الأمين محمد –صلى الله عليه وسلم–

أما بعد:

فإنّ صحيح البخاري من أهم المصنَّفات في الحديث النبوي الشريف؛ بل عدّه العلماء أصحَّ كتاب بعد كتاب الله –عز وجل– لما يحتويه من أحاديث منسوبة للنبي –صلى الله عليه وسلم– هي من أعلى درجات الصحة والتي لا يُشكُّ أبدًا في صحتها.

لذا، انكبَّ العلماء والباحثون وطلبة العلم ينهلون من هذا المصنّف ويدرسونه فقهيًّا، وعقديًّا، ولغويًّا، ونحويًّا، وتعددت شروحاته، وكثرت الأبحاث العلمية التي تناولته في شتى المجالات والفنون.

من هنا، فقد جاءت هذه الدراسة لتتناول جانبًا جديدًا في كتاب صحيح البخاري في دراسة جديدة متواضعة، عنوناها بـ **(سيميائية اللغة الصامتة للعين في صحيح البخاري)**؛ وقصدنا باللغة الصامتة: لغة الجسد وتعبيرات الوجه والعيون واليدين والأرجل ودلالاتها.

ويعد هذا الموضوع من الموضوعات الجديدة في طريقة البحث العلمي، ويعدُّ تطويرًا لمسيرته بما يتناسب والحياة البشرية التي تتطور، ولا تقف عند حد معين.

تستعرض هذه الدراسة الوظيفة الدلالية للغة الصامتة بوصفها من أهم وسائل الاتصال والتفاهم بين بني البشر.

وتدلل هذه الدراسة على أن الكلام ليس الوسيلة الوحيدة التي نعبر بها عن أنفسنا، فهناك ما يعرف باللغة الصامتة، فكثيرًا ما نتحرك ونعبر عما نقول بحركات وإيماءات معينة في أثناء الحديث مع الآخرين، وكثيرون يأتون بحركات لا إرادية قد تكون لافتة، وقد لا نلاحظها بوضوح، فحينما تتصل بالآخرين فإنك تتصرف بطريقتين للتعبير، وهما: الكلام والإيماء.

وتركز الدراسة على وظائف اللغة الصامتة ودلالاتها، وتطبيق ما تُوصِّل إليه نظريًّا على الحديث النبوي الصحيح؛ لذا اقتضت طبيعة البحث الاعتماد على المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والبحث والنظر والتحليل في الأحاديث النبوية في صحيح البخاري، من خلال استخراج الأحاديث التي تحتوي إشارات غير لفظية، وعرضها بأسلوب سهل وميسر من خلال استخراج الدلالات والمعاني التي تحملها، كل في موضعه المناسب، ثم معرفة آراء العلماء فيها من خلال المصادر القديمة والحديثة.

التمهيد

مفهوم اللغة الصامتة وعلاقتها بالسيميائية

يبدو جليًّا لنا أن المصطلح يتكون من لفظتين: (اللغة) و(الصمت)، ومن أسس البحث العلمي –التي جرت العادة باتباعها– توضيح معاني المصطلح في اللغة وعند أهل الاختصاص، ثم توضيح المصطلح العلمي الموسوم من خلال المراجع العلمية المتعددة التي تناولت المصطلح ذاته.

أولًا– اللُّغةُ لغةً:

جاء في اللسان "اللغة: "اللِّسْنُ، وحَدُّها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي فُعْلةٌ من لَغَوت؛ أي: تكلَّمت، أصلها لُغْوة، وقيل: أصلُها لُغَيٌ أو لُغَوٌ"[١].

([١]) ابن منظور، لسان العرب، مادة: لغا،(١٥/٢٥١-٢٥٢)

وجاء في تهذيب اللغة: "قال الليث: اللُّغةُ واللغاتُ واللُّغِين: اختلاف الكلام في معنى واحد. ويقال: لغا يَلغو لغوًا، وهو اختلاط الكلام ولَغَا يَلْغا لُغةُ. وأصل لُغوةٌ من لَغَا إذا تكلَّم"(١).

واللغة في زماننا المعاصر لها ثلاثة أوجه؛ الأول: منطوق وسيلته الأصوات، والثاني: مكتوب وسيلته الحروف، والأخير: صامت وسيلته الإرشادات والرسوم(٢).

ثانيًا– اللغةُ اصطلاحًا:

إنّ المعنى اللغوي لكلمة (اللغة) لا يبتعد كثيرًا عن المعنى الاصطلاحي لها، وأبرز هذه التعريفات ما يأتي:

تعريف ابن جني للّغة بقوله: "أصواتٌ يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم"(٣).

ويعرفها محمود حجازي بقوله: "اللغة نظام من الرموز الصوتية، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به، وقيمة الرمز اللغوي تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر، ومخاطب أو قارئ هو المتلقي"(٤).

ويقول رمضان عبد التواب عن اللغة: "اللغة كائن حي؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، كما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره، وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيه وتنحطّ بانحطاطه"(٥).

ويعرفها علي عبد الواحد وافي بقوله: "اللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في اتباعه، ويتخذونه أساسًا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض"(٦).

---

(١) انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: غَل(٨/١٧٢–١٧٣).

(٢) الحسيني، اللغة الصامتة (ص٢٣).

(٣) ابن جني، الخصائص (١/٣٣).

(٤) حجازي، أسس علم اللغة العربية (ص٨).

(٥) عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه (ص٩).

(٦) وافي، اللغة والمجتمع (ص٦).

ويعرفها محمود السعران بقوله: "والذي يذهب إليه العلم هو أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية، ومعنى هذا أنها من صنع المجتمع الإنساني"(١).

ويعرفها عبد الصبور شاهين بقوله: "يطلق لفظ اللغة على تلك الأصوات التي ينتجها جهاز النطق في الإنسان، معبرًا بها عما يحس به من حاجات يريد بيانها والإيضاح عنها"(٢).

وتعرفها سيزا قاسم بقولها: "اللغة أداة تواصل ونظام من العلامات الشفوية الخاصة بأعضاء مجموعة تواصلية واحدة"(٣).

وبعد سرد هذه المصطلحات والتعاريف لمفهوم اللغة بَانَ للباحثين أنّ أدقّ وأوجز هذه التعريفات هو تعريف ابن جني لها، وأنّ كثيرًا من أهل اللغة أبدوا إعجابهم بهذا التعريف وأظهروا قناعتهم به، فهذا محمود حجازي يقول مُبديًا رأيه به: "وهذا تعريف دقيق يذكر كثيرًا من الجوانب المميزة للغة. لقد أكّد ابن جني أولًا الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر –أيضًا– أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم"(٤).

ثالثًا– الصمتُ لغةً:

والصمت لغةً: السكوت، قال ابن منظور: "صمت: يصمت صَمتًا وصُمتًا وصموتًا وصماتًا، وأصمت: أطال السكوت، والتصميت: التسكيت. والتصميت أيضًا: السكوت ورجلٌ صِمِّيتٌ؛ أي: سكِّيتٌ، والاسم من صَمَتَ: الصُّمْتةُ، وأصْمَتَه هو، صمَّتَه، وقبل الصَّمتُ المصدر، وما سوى ذلك فهو اسمٌ، والصُّمْتَةُ بالضم: مثل السُّكْتةِ، ابن سيده: الصُّمْتَة، والصِّمتةُ:

ما أُصْمِتَ به، وصُمْتةُ الصَّبي: ما أُسْكِتَ به"، وفي حديث علي –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال: (لا رضاع بعد فصالٍ، ولا صَمتَ يوما إلى الليل)، ويقال للرجل إذا اعتقل لسانُه فلم يتكلم أصمَتَ، فهو مُصْمِتٌ، وأنشد أبو عمرو:

ما إن رأيتُ من مـُعَنَّيــاتِ أصبرَ منهنَّ على الصماتِ (٥).

---

(١) السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (ص٥٢).

(٢) شاهين، في علم اللغة العام (ص٢٢).

(٣) سيزا قاسم ونصر أبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا (ص١٤).

(٤) حجازي، أسس علم اللغة العربية (ص٧).

(٥) ابن منظور: لسان العرب، مادة: صَمَتَ، (٥٥/٢)

رابعًا- الصمت اصطلاحًا:

هذا المصطلح لا يُنسب لأهل اللغة والأدب فحسب؛ بل يتداوله -أيضًا- أهل اللغة، وعلماء علم النفس، وأهل البلاغة، ويُستعمل للفنون كافة، ولا يختلف معناه اللغوي عن الاصطلاحي كثيرًا.

يقول جوت شاكر عن الصمت: "الصمت ليس التوقف عن الكلام؛ بل هو كلام من نوع آخر؛ أي: هو لغة بحد ذاته، وهو الأقرب إلى حالة الفيض الانفعالي من الكلام؛ بل قد يرسل إشارة عظيمة الدلالة"(١)؛ فهو يَعُدُّ الصمت لغةً من نوع آخر؛ لأن الصمت -في كثير من الأحيان- قد يوصل رسالة أبلغ من الكلام.

ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كلامًا قيِّمًا فيما يتعلق بالصمت، فقد صدَّر في باب الصمت كلامًا يُنسبُ لعدد من الزُّهاد والعلماء والصحابة وينسب للنبي -صلى الله عليه وسلم- يحث على الصمت، ويحذّر من الكلام، ومن ذلك أنّ أعرابيًّا سُئل عن طول صمته فقال: "أسمعُ فأعلم وأسكت فأسلم"(٢).

ويُعدُّ فهم الجاحظ لهذه النصوص فهمًا دقيقًا سليمًا، فهو يرى أنّ هذه النصوص الواردة في التحذير من الكلام وطلاقة اللسان لا يفهم منها أنه ينبغي لزوم الصمت والسكوت في كل الأحوال؛ بل حث على البيان وطلاقة اللسان لمن وجد في نفسه القدرة على بيان الحق والصَّدع والجهر به، فقال: "وأنا أوصيك أن لاتدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أنّ لك فيها طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة ... وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المِنَّة يوم الحفل فلا تقصر في التماس أعلاها سورةً وأرفعها في البيان منزلة"(٣).

خامسًا- مفهوم اللغة الصامتة:

ونعني باللغة الصامتة لغة الجسد من إشارات وإيماءات وتعبيرات الوجه، فاللغة الصامتة -في نظر الباحث- وصفٌ للغة الجسد.

---

(١) محمود، الاتصال في علم النفس (ص١٨٠).

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين (ص١٢٣).

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين (ص١٢٦).

ومن خلال البحث حول هذا الموضوع تبين أن هذا المصطلح حديث معاصر، وأنّ الذين تناولوا هذا المصطلح هم من المعاصرين، فمنهم من أطلق عليه مصطلح لغة الجسد، ومنهم من سماه بلغة الجسم، ومنهم من سماه باللغة الصامتة، ومنهم من سماه بالاتصال الصامت، ومنهم من سماه بالاتصال غير اللفظي.

وسيتضح هذا الكلام أكثر بعد عرض تعريفات بعض المعاصرين لهذا المصطلح:

سمَّى الدكتور إبراهيم أبو عرقوب المصطلح بالاتصال غير اللفظي، وحدَّه بأنه "لغة عالمية تستخدم رموزًا على شكل إشارات وحركات، تتحكم ضرورات أو عوامل بيولوجية فيه"(١).

وعرَّف الدكتور نضال أبو عياش لغة الجسد بقوله: "تتضمن هذه اللغة نقل المعاني من خلال حركات الوجه وتعبيراته، والإيماءات، والانحناءات، ووضع الجسم، وحركات اليدين، واللمس، وشكل الجسم أو مظهره"(٢).

وسلَّط الدكتور إسحاق موسى الحسيني في حديثه عن اللغة الصامتة الضوءَ على الإرشادات (العلامات) التي وردت في العربية قديمًا وحديثًا بقصد جمعها وتبويبها، وبعض هذه الإشارات عامٌ تشترك فيه جميع اللغات، وبعضها خاصٌ اصطلح عليه العرب قديمًا وحديثًا(٣).

ويَعدُّ جودت شاكر محمود لغة الجسم وسيلةً من وسائل الاتصال غير اللفظي، ويعرفها بقوله: "مصطلح يستخدم للتعبير عن المشاعر اللاشعورية والدفعات والصراعات من خلال أعضاء الجسم ... أو للدلالة على وضع الجسم من خلال الإشارات أو الإيماءات أو التعبيرات الوجهية والصور الأخرى من التواصل غير اللفظي"(٤).

ويقول محمد غباري وسيد عطية في تعريفهما للاتصال غير اللفظي: "وهو يعتمد على اللغة اللفظية على اعتبار أنّ كل الوسائل اللفظية وغير اللفظية تصير لغة للتفاهم والاتصال، وتشمل الصور بأنواعها والرموز والإشارت التي يستخدمها الانسان؛ لتدل على معاني أو مفاهيم معينة كإشارات المرور، وحركات الإنسان نفسه، وغيرها"(٥)، نلاحظ في هذا

---

(١) انظر: أبو عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي (ص٢٢- ٢٣).

(٢) أبو عياش، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق (ص١٢٠).

(٣) انظر: الحسيني، اللغة الصامتة (ص٢٣).

(٤) محمود، الاتصال في علم النفس (ص١٤١).

(٥) غباري وعطية، الاتصال ووسائله بين النظرية والتطبيق (ص٣٥).

التعريف أنّ الاتصال غير اللفظي عند المؤلفين لا يقتصر على لغة الجسم عند الإنسان؛ بل يتعداها ليشمل إشارات المرور وغيرها من الرموز والإشارات التي يمكن من خلالها إيصال رسالة أو مفهوم معين.

مما سبق يتضح أنَّ جميع هذه التعريفات متقاربة في المعنى وإنْ اختلف المصطلح، فكلهم اتفقوا على أنّ اللغة الصامتة هي عبارة عن إشارات أو إيماءات أو تعبيرات وجه يستعين بها الإنسان؛ ليعبر عما في نفسه ووجدانه.

وبإمكاننا أن نوضح علاقة اللغة الصامتة بالسيميائية ونستنتجها بعد أن نبين مفهوم السيميائية لغة واصطلاحًا.

سادسًا- السيمياء لغة:

السيمياء لفظ عربي أصيل أورده أصحاب المعاجم اللغوية في مادة لغوية واحدة وهي (سَوَمَ)، كالآتي:

جاء في اللسان "السومة والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة، وسوم الفرس: جعل عليه السيمة، قال أبو بكر: قولهم عليه سيما حسنة معناه علامة، وهي مأخوذة من وسمت أَسِم، وقيل: الخيل المسومة هي التي عليها السيما والسومة وهي العلامة[1].

وقد وردت كلمة (السيمياء) في اللغة مقصورة وممدودة. ومثال ورودها مقصورة من التنزيل الحكيم ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ**﴾[2]. قال الطبري في تأويل هذه الآية: "وقوله: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ علامتهم في وجوههم من أثر السجود، وجاء في الحديث: (إنّ لله فرساناً من أهل السماء مُسَوَّمين)[3]؛ أي: معلمين، ثم اختلف أهل التأويل في السيما الذي عناه الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يُعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدنيا، وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وقال آخرون: ذلك أثر يكون في وجوه المصلين، مثل أثر السهر، الذي يظهر في الوجه مثل الكلف والتهيج والصفرة، وأشبه ذلك مما يظهره السهر والتعب في الوجه، ووجه التأويل في ذلك إلى أنه سيما في الدنيا[4].

وقد وردت السيمياء ممدودة في اللغة، كما في قول أسيد بن عنقاء الفزاري:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوم).

(2) [سورة الفتح: ٢٩].

(3) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، (٢٠٦/٢).

(4) انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦١/٢٢ – ٢٦٤).

غلام رماه الله بالحسن يافعًا له سيمياءٌ لا تشقّ على البَصَرْ[١].

سابعًا-السيمياء اصطلاحًا:

تعددت مفاهيم السيمياء في المصطلح النقدي وتشعَّبت، ويعود ذلك -في نظر الباحث- إلى عدم استقرار مفردات هذا العلم، وإلى عدم اكتمال مناهجه، وإلى عدم هيمنة حقله المعرفي. وهذا ما ذكرته الدكتورة فريال جبوري غزول بقولها: "ومع أنّ السيميوطيقا -بوصفها علمًا- تبلورت في القرن العشرين حيث تشكلت مفرداتها وإن لم تستقر، وتحددت مناهجها وإن لم تكتمل، وأصبحت حقلًا معرفيًّا وإن كان غير مهيمن، إلا إن التأملات في العلامة قديمة قدم الحياة"[٢].

وتبيَّن لنا أنّ أغلب المصادر التي تناولت مصطلح السيمياء ومفهومه عُنْوِنَتْ بـ (السيميولوجيا) أو (السيميوطيقا)، وقد اختار دي سوسير مصطلح السيميولوجيا، واختار بيرس مصطلح سيميوطيقا، وما زال الأوربيون -ولا سيما العالم الناطق بالفرنسية- يؤثرون مصطلح دي سوسير(١٨٥٧-١٩١٣م)، بينما يؤثر الأمريكيون مصطلح بيرس (١٨٣٩-١٩١٤م) [٣]. "أما العرب، خاصة أهل المغرب العربي فقد دعوا إلى ترجمتها بـ(السيمياء) محاولة منهم في تعريب المصطلح"[٤].

وفي تعريف سعيد بنكَراد لها: "إنها أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءًا من الانفعالات البسيطة ومرورًا بالطقوس الاجتماعية، وانتهاءً بالأنساق الإيديولوجية الكبرى"[٥].

وقد عرفها كل من ميجان الرويلي وسعد البازعي في كتابهما دليل الناقد الأدبي بقولهما: "السيميولوجيا (السيميوطيقا) لدى دارسيها، تعني علم أو دراسة العلامات (الإشارات) دراسة منظمة منتظمة"[٦].

وبعد سرد هذه التعريفات والمفاهيم عن السيميائية يتبيَّن أنه بالرغم من تعدد التعريفات إلا إنها -جميعها- تدل على مفهوم واحد، وأنّ السيميائية علم من العلوم يخضع لضوابط وقوانين معيَّنة، ويظهر للباحث -أيضًا- أنّ عموم الدّارسين يتّفقون على أنّ السيميائية هي علم العلامات أو العلم الذي يدرس العلامات.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوم).

(٢) قاسم وأبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا (ص١٤).

(٣) انظر: الحموز، سيميائية التواصل والتفاهم في التراث العربي القديم (ص٢٨). وانظر: شولز، السيمياء والتأويل (ص١٣-١٤).

(٤) الرويلي والبازعي، دليل الناقد الأدبي (ص١٧٧).

(٥) بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها (ص٢٥).

(٦) الرويلي، والبازع، دليل الناقد الأدبي (ص١٧٧).

ثامنًا–العلاقة بين اللغة الصامتة والسيميائية:

بعد التأصيل العلمي لمصطلحي اللغة الصامتة والسيمياء لغة واصطلاحًا، وتوضيح المقصود بكل منهما من خلال تتبع أقوال العلماء في ذلك ودراستها، يمكننا أن نخلص إلى عدة استنتاجات نوضح من خلالها العلاقة بين اللغة الصامتة والسيمياء كالآتي:

١– تهتم السيمياء بدراسة العلامات والرموز من أجل تمكين الكائنات البشرية من فهم بعض الأحداث أو الوحدات بوصفها علامات تحمل معنى، بينما تهتم اللغة الصامتة بدراسة العلامات والرموز التي تصدر من الإنسان من أجل التواصل بين المرسل والمستقبل.

٢– السيمياء واللغة الصامتة مصطلحان يخضعان لضوابط وقوانين معينة، شأنهما في ذلك شأن سائر العلوم الأخرى.

٣– على الرغم من تعدد المصطلحات والتعريفات لكل من السيمياء واللغة الصامتة؛ إلا إنّها تدل على مفهوم واحد، فالسيمياء تدرس الإشارة لتفسير الأحداث، واللغة الصامتة تدرس الإشارة لتمكين التواصل بين المرسل والمستقبل.

سيميائية اللغة الصامتة للعين

توطئة

في كثير من الأحيان يَعْجَزُ اللسانُ عن التعبير عن مكنونات النفس، وعن المشاعر والأحاسيس التي في داخلها، في الوقت الذي لا تعجزُ العين عن إظهار هذه المكنونات والمشاعر والأحاسيس؛ لتُكَوِّن بذلك لغة صادقة صامتة تظهر ما في النفس من كلام يعجز اللسان عن بيانه والتعبير عنه، وقد أشار القرآن الكريم إلى دلالة لغة العيون في آيات عديدة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[١].

---

(١) [الأحزاب: ١٩].

للتواصل غير اللفظي من خلال العين أهميةٌ كبيرة في نقل المعلومات من المرسل إلى المستقبل، وهذا ما أكده نضال أبو عياش، حيث قال: "يعد تواصل العينين من أقوى الوسائل غير اللفظية؛ لأنها تستطيع نقل العديد من الرسائل بطرق مختلفة"[١].

وعندما يتقابل شخصان لأول مرة، فإن عين كل منهما يكون لها القدرة على قراءة أفكار بعضهما بعضًا من خلال حركات العين، قال آلان وبربارابيس: "كانت إشارات العين جزءًا محوريًّا في القدرة على قراءة اتجاهات الطرف الآخر وأفكاره، عندما يتقابل الناس لأول مرة، فإنهم يجرون سلسلة من الأحكام السريعة حول كل منهم عن الآخر، استنادًا إلى حد كبير على ما يرونه"[٢]، بمعنى أنك إذا قابلت شخصًا لأول مرة في حياتك، فإنك تستطيع أن تأخذ فكرة عن هذا الشخص من خلال لغة العيون الصامتة؛ لذا يمكن لنا أن نعدَّ العينَ اللسانَ الناطق في اللغة الصامتة، وقد نقل أبو عياش قولا للدكتور ماجد سكر في ذلك، حيث قال: "فهي اللسان الناطق في تلك اللغة الصامتة"[٣].

وعلى صعيد حياتنا اليومية – مثلًا– قد يتحاور شخصان اثنان باللسان وباللغة المنطوقة العادية؛ لكن قد يشك أحدهما في الآخر وفي مدى صدق حديثه؛ فيقول له بالعبارة المتداولة المشهورة: (عيني في عينك)؛ أي: بمعنى أنه يريد أن يتحقق من مدى صدقه من خلال لغة العين الصامتة الأكثر صدقًا، فالعين قد تُظهر ما يخفيه القلب، قال الشاعر:

العين تبدي الذي في قلب صاحبها ... من الشـــناءة أو حبّ إذا كانا

إنّ البغيـــض له عين تكشّفـــــه ... تســتطيع لمـــا في القلب كتمانا

فالعيــن تنطـــق والأفـــواه صامتة ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا[٤]

وقد بيَّن الجاحظ العلاقة بين اللفظ والإشارة بالعين وباقي الحواس بأنّهما شريكان، فقال: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه"[٥]؛ أي: إنّ الإشارة واللفظ يعين كل منهما الآخر في إيصال المراد على وجهه الصحيح، وقال– أيضًا– عن الإشارة بالعين: "وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير

---

(١) أبو عياش، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق (١٢٣).

(٢) بربارايس، لغة الجسد (ص١١٢).

(٣) أبو عياش، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق (١٢٣).

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء (١٣٥٥/٣)

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين (٥٦/١).

ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة"[١].

قال الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشـــــارة مذعور ولـــــم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم[٢]

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره وتعرف بالنجوى الحديث المغمَّسا[٣]

وتحمل لغة العيون دلالات عديدة متنوعة تظهر بشكل واضح عند تعامل الإنسان بهذه اللغة، وقد وضح الدكتور نضال أبو عياش بعضًا من هذه الدلالات بقوله: "ففي حالة تواصل العينين لفترات طويلة، فإن هذا يعني: عدم الاحترام، التعالي، التهديد، التحذير. وفي حالة تواصل العينين لفترات قصيرة، فإن هذا يعني: الخوف، الخجل، وفي حالة النظر إلى الأسفل فإن هذا يعني: التواضع، الطاعة، الخضوع، والنظر في أثناء الكلام إلى جهة الأعلى لليسار: يعني أن الإنسان يعبر عن صور داخلية في الذاكرة، وإن كان يتكلم وعيناه تزيغان لجهة اليمين للأعلى؛ فهو ينشئ صورًا داخلية ويركبها ولم يسبق له أن رآها"[٤].

وستتضح في صحيح البخاري دلالات عديدة أخرى للغة العيون وحركاتها في المباحث الآتية:

المبحث الأول

دلالة البكاء

من خلال تتبع الكلمات والألفاظ التي تدل على حركة العين في صحيح البخاري، اتضح أنّ حركة العين توحي بدلالات عديدة، ومن هذه الدلالات دالة البكاء، وقد وردت هذه الدالة في أحاديث كثيرة بمعاني عديدة كالآتي:

---

(١) المرجع السابق، ٥٦/١.

(٢) المرجع نفسه، ٥٨/١.

(٣) المرجع نفسه، ٥٨/١.

(٤) أبو عياش، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق (ص١٢٤).

المطلب الأول

البكاء الدال على الحزن

الأصل في البكاء أنه لا يكون إلا لحزن أو لألم يصيب الإنسان، وورد في صحيح البخاري أحد عشر حديثًا يحمل هذه الدلالة، وهي كالآتي:

-عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قَالَ: "خَطَبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، **فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ**- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ؟ إِنْ يَكُنِ الله خَيَّرَ عَبْدا بَيْنَ الدنيا وَبَيْنَ مَا عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا..." [١]، فبدا جليًّا لنا في هذا الحديث أنّ أبا بكر -رضي الله عنه- قد بكى حزنًا بعدما علم أنّ المقصود بالعبد هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال صاحب تحفة الباري: "حيث فَهِم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفارق الدنيا؛ فبكى حزنًا على فراقه"[٢]، فدلّ البكاء -هنا- على الحزن.

-وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ - **وَإِنَّ عَيْنَيْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَتَذْرِفَانِ** - ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفُتِحَ لَهُ»[٣]، والشاهد في الحديث هو قول أنس -رضي الله عنه: "وإنّ عيني رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لتذرفان؛ أي: تسيلان دمعًا حزنًا على فراق أصحابه، قال صاحب اللسان: "ذَرَفَ الدَّمعُ يَذرِفُ ذَرْفًا وذَرَفَانًا: سَالَ"[٤]، وفي حديث العرباض: (فَوَعَظَنَا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظةً بليغةً ذَرَفَت منها العيون)؛ أي: جرى دمعها"[٥].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلاة/ باب الخوخة والممر في المسجد، ١٤٤/١: رقم الحديث ٤٦٦.

(٢) زكريا الأنصاري، تحفة الباري (١٧٩/٢).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجنائز/ باب الرجل يَنْعَى إلى أهل الميت بنفسه، ٣٤٧/١: رقم الحديث ١٢٤٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذَرَفَ).

(٥) المرجع السابق، (١٠٩/٩).

-وعَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أُتِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَوْمًا بِطَعَامِهِ، فَقَالَ: «قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ - أَوْ رَجُلٌ آخَرُ - خَيْرٌ مِنِّي، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا **ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي**»[١]، والشاهد في الحديث هو قوله: "ثم جعل يبكي" والبكاء في هذا الموضع يحمل دلالتين: الحزن والخوف؛ أي إنّ عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- قد بكى حينما تذكّر سير الصالحين من قبله وكيف كان زهدهم وتقللهم من الدنيا؛ فأخذ بالبكاء خوفًا على ألَّا يلحق بهم، وحزنًا على تأخره عنهم، وقد قال بذلك أكثر من واحد من شُرّاح الحديث الشريف، قال زكريا الأنصاري في تحفة الباري: " ثم جعل يبكي؛ أي: خوفًا على ألَّا يلحق بمن تقدمه، وحزنًا على تأخره عنهم"[٢]، وقال شمس الدين البِرْماوي: "...وإنما بكَى شفَقًا ألَّا يلحَق بمن تقدَّمه، وحُزْنًا على تأْخيره عنهم..."[٣].

-وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- أَنَّهُ قَالَ: "أَصَبْتُ شَارِفًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي مَغْنَمٍ يَوْمَ بَدْرٍ ... فَنَارَ إِلَيْهِمَا حَمْزَةُ بِالسَّيْفِ فَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا، قُلْتُ لِابْنِ شِهَابٍ وَمِنَ السَّنَامِ؟ قَالَ: قَدْ جَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، فَذَهَبَ بِهَا، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: - قَالَ عَلِيٌّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **فَنَظَرْتُ إِلَى مَنْظَرٍ أَفْظَعَنِي**...[٤] وفي رواية أخرى: (...**فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ المَنْظَرَ مِنْهُمَا**، فَقُلْتُ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ فَقَالُوا: فَعَلَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهُوَ فِي هَذَا البَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى النَّبِيِّ- صلى الله عليه وسلم- وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَعَرَفَ النَّبِيُّ- صلى الله عليه وسلم- فِي وَجْهِي الَّذِي لَقِيتُ...)[٥]. والشاهد من هذا الحديث، فعندما رأى علي -رضي الله عنه- ما جرى للناقتين حزن حزنًا شديدًا لدرجة أنه لم يملك عينيه من البكاء وخاف من تأخير البناء بفاطمة -رضي الله عنها-؛ فالبكاء -هنا- يحمل دلالة الحزن، ويحمل دلالة الخوف من عدم تحقيق المراد، قال بدر الدين العيني: "وإنما كان بكاؤه -رضي الله تعالى عنه- خوفًا من توهم تقصيره في حق فاطمة -

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجنائز/ باب الكفن من جميع المال، ٣٥٤/١: رقم الحديث ١٢٧٤.

(٢) الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (٢٧٠/٧).

(٣) البِرْماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (١٨٠/٥).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المساقاة/ باب بيع الحطب والكلإ، ١٣٧/٢: رقم الحديث ٢٣٧٥.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس/ باب فرض الخمس، ٣٥٥/٢: رقم الحديث ٣٠٩١.

رضي الله تعالى عنها-، أو في تأخير الابتناء بسبب ما كان منه ما يستعان به"[١]. وتبدو اللغة الصامتة أو لغة الجسد واضحة على وجه علي -رضي الله عنه- وعينه؛ لدرجة أنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم- قد علم حُزن علي من تعبيرات وجهه وعيونه، ومصداق ذلك قوله في الحديث: "فعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- في وجهي الذي لقيت".

-وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ قَالَ: "يَوْمُ الخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الخَمِيسِ؟ **ثُمَّ بَكَى حَتَّى خَضَبَ دَمْعُهُ الحَصْبَاءَ**، فَقَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- وَجَعُهُ يَوْمَ الخَمِيسِ..."[٢]؛ فدلالة بكاء ابن عباس في هذا الموضع هي الحزن، فقد بكى حزنًا عندما تذكر اليوم الذي اشتدّ فيه وجع النبي -صلى الله عليه وسلم- ومات من هذا المرض.

-وقال أبو بكر -رضي الله عنه- بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا- صلى الله عليه وسلم- فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾[٣]، وَقَالَ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[٤]، قَالَ: **فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ**..."[٥]، والشاهد قوله: (فنشج الناس يبكون)، والنشيج في اللغة: هو البكاء بغير انتحاب، قال ابن منظور: "ونشج الباكي إذا غُصَّ بالبكاء في حَلقِه من غير انتحاب"[٦] وبكاء الصحابة -رضي الله عنهم- في هذا الموضع بعد سماعهم هذه الكلمات من أبي بكر -رضي الله عنه- كان حزنًا وألمًا لفراقهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا. قال ابن حجر في فتح الباري عن هذا النشيج: "هو صوت معه توجع وتحزن"[٧]، وفي حديث عمر -رضي الله عنه-: "أنه صلَّى الفجرَ بالناسِ فقرأَ سورة يوسف، حتى إذا جاء ذِكرُ يوسفَ بكى حتى سُمِعَ نَشِيجُهُ خلفَ الصفوف"[٨] فدلالة هذا البكاء والنشيج هي الحزن والألم.

---

(١) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/١٥).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير/ باب هل يُسْتَشْفَعُ إلى أهل الذمة؟ ومعاملتهم، ٣٤٤/٢: رقم الحديث ٣٠٥٣.

(٣) الزمر، ٣٠.

(٤) آال عمران، ١٤٤.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم/ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلًا"، خليلًا"، ٥٢٩/٢: رقم الحديث ٣٦٦٨.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة (نَشَجَ).

(٧) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٩٤/١).

(٨) السيوطي، الدرّ المنثور، (٥٧٣/٤).

-وعن أَنس بن مَالِكٍ، يَقُولُ: "مَرَّ أَبُو بَكْرٍ، وَالعَبَّاسُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ **وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟** قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ- صلى الله عليه وسلم- مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ المِنْبَرَ، وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»"[1]، والشاهد من الحديث قوله: (وهم يبكون)، عندما مرّ أبو بكر والعباس -رضي الله عنهما- بالأنصار وهم يبكون عجبًا من سبب هذا البكاء! فسأل العباس الأنصار عن سبب بكائهم؛ فقالوا إنهم كانوا يجلسون في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعندما مرِض النبي -صلى الله عليه وسلم -خافوا أن يموت في مرضه هذا فبكوا حزنًا على فوات ذلك المجلس مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبهذا المعنى شَرَحَ الحديث بدر الدين العيني في كتابه عمدة القاري[2]، فدلالة بكاء الأنصار هي الحزن على فراق مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفواته.

-وعَنِ ابْنِ المُنْكَدِرِ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "لَمَّا قُتِلَ أَبِي **جَعَلْتُ أَبْكِي**، وَأَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- يَنْهَوْنِي وَالنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- لَمْ يَنْهَ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: "لاَ تَبْكِهِ - أَوْ: مَا تَبْكِيهِ - مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ "[3] والشاهد من الحديث قوله: (جعلت أبكي)، ولا شكَّ -هنا- في أنّ دلالة هذا البكاء هي الحزن.

-وفي حديث كعب الطويل جاء فيه: "...وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ

([1]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار/ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»، ١٠/٣: رقم الحديث ٣٧٩٨.

([2]) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٦٥/١٦).

([3]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي/ باب منْ قُتِلَ مِنَ المُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ٩٦/٣: رقم الحديث ٤٠٨٠.

بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، **فَفَاضَتْ عَيْنَايَ**، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ..."[1]، هذا جزء من حديث كعب بن مالك –رضي الله عنه– يروي فيه تفاصيل قصة تبوك وما جرى معه في هذه القصة، حيث تخلّف هو وصحابيان عن غزوة تبوك فأمر رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– صحابته بمقاطعتهم حتى نزل قرآنًا من فوق سبع سماوات يُظهر صدقهم في التوبة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2]، والثلاثة اللذين خُلِّفوا في غزوة تبوك، هم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار –رضي الله عنهم جميعا–[3] وهذا الجزء من الحديث فيه عدة دلالات لحركة العين سنعرضها في مكانها –إن شاء الله– والشاهد الذي يلزمنا من هذا المقطع –هنا– هو قوله: "ففاضت عيناي وتوليت ..."، فمن سياق الحديث نعلم مدى الحزن الذي لحق بكعب –رضي الله عنه– لفراق أصحابه ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– له ومقاطعتهم له؛ ففاضت عيناه وامتلأت بالدموع حزنًا لذلك، فدلالة البكاء هي الحزن الشديد.

–وعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– قَالَتْ: "أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم–فَقَالَ النَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، **ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ**، فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ..."[4] فبكت فاطمة –رضي الله عنها– عندما أسرَّها النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنّ جبريل –عليه السلام– قد قرأ عليه القرآن هذا العام مرة واحدة، وقد كان يقرأه عليه في كل عام مرتين، فأخبرها بأنّ هذا دليل اقتراب أجله –صلى الله عليه وسلم– فبكت حزنًا عندما علمت أنّه سيفارق الحياة.

المطلب الثاني

البكاء الدال على الغيرة

([1]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي/ باب حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، ١٩٠/٣: رقم الحديث ٤٤١٨.

([2]) التوبة، ١١٨.

([3]) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢٦٢/٨).

([4]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام، ٥١٧/٢: رقم الحديث ٣٦٢٣.

ورد في صحيح البخاري حديث واحد دلّ فيه البكاء على الغَيْرة، وهو:

-رُوِي "عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ، أَخِي عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ، يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِدِمَشْقَ **وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟** فَقَالَ: لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا أَدْرَكْتُ إِلَّا هَذِهِ الصَّلاَةَ وَهَذِهِ الصَّلاَةُ قَدْ ضُيِّعَتْ"[١].

ويبدو في هذا الحديث أنّ أنس بن مالك -رضي الله عنه- قد بكى غَيْرةً على إضاعة الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام، والمقصود بإضاعة الصلاة، تأخيرها عن وقتها، قال ابن حجر العسقلاني: "والمراد بتضييعها تأخيرهاعن وقتها المستحب..."[٢]، وخوفًا من وقوع عقاب الله -عز وجل- بإضاعة الصلاة.

المطلب الثالث

البكاء الدال على الخوف والشوق والخشوع

وورد في صحيح البخاري ثلاثة أحاديث تحمل هذه المعاني، وهي:

-قول عائشة -رضي الله عنها- وهي تصف أبا بكر -رضي الله عنه- بقولها: "**وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ** ..."[٣]، فكان أبو بكر -رضي الله عنه- شديد البكاء عند تلاوة القرآن الكريم، وهذه دلالة واضحة على خشوعه وتدبره عند التلاوة، ومعنى لا يملك عينيه؛ أي: "لا يطيق إمساكهما عن البكاء من رقة قلبه"[٤]؛ كما ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري.

-وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ...وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، **فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**"[٥]، الشاهد من الحديث قوله (ففاضت عيناه)، ومعنى الفيض لغة: السيلان بكثرة، قال صاحب اللسان: "فاض الماء: كَثُر حتى سال كالوادي"[٦]، ودلالة البكاء في هذا الموضع هي الشوق إلى لقاء الله -عز وجل- والخوف من عقابه وخشوع القلب، فدلالة البكاء حملت معنى الخوف والشوق والخشوع،

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة/ باب تضييع الصلاة عن وقتها، ١٦٠/١: رقم الحديث ٥٣٠.

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٤/٢)

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الصلاة/ باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، ١٤٧/١: رقم الحديث ٤٧٦.

(٤) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٣٤/٧).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة/ باب الصدقة باليمين، ٣٩٨/١: رقم الحديث ١٤٢٣.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة (فَاضَ).

قال ابن عثيمين: "ففاضت عيناه شوقًا إلى ربه عز وجل...؛ لأن القلب إذا صفا وخلا من غير الله صار عنده من الخشوع والشوق إلى الله –عز وجل– والخوف من عقابه ما لا يكون إذا كان متعلقًا بغير الله– سبحانه وتعالى"[1].

–وعَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– حَتَّى أَحْفَوْهُ المَسْأَلَةَ، فَغَضِبَ فَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَقَالَ: «لاَ تَسْأَلُونِي اليَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ» فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا، **فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لاَفٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي**..."[2]، فقد بكى الصحابة –رضي الله عنهم– خوفًا من غضب الله لغضب رسول الله– صلى الله عليه وسلم–، قال أحمد الشافعي في بيان دلالة بكاء الصحابة: "فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي خوفًا من غضب الله لغضب رسول الله"[3].

المطلب الرابع

البكاء الدال على الفرح والسرور

فقد يبكي الإنسان فرحًا وسرورًا عند سماعه بشرى تسعده، أو خبرًا يفرحه، وورد في صحيح البخاري ثلاثة أحاديث تحمل هذه الدلالة:

–عن أبي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: "بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– إِذْ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا، **فَبَكَى عُمَرُ**، وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ"[4]، ففي هذا الحديث يروي النبي– صلى الله عليه وسلم– رؤيا لأصحابه قد رآها في منامه، يرى فيها قصرًا جميلًا في الجنة فأُعجب به؛ فسأل لمن هذا القصر؟ فقيل له لعمر بن الخطاب، فبكى عمر عند سماعه هذا الخبر فرحًا واستبشارًا برؤيا رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وجميع شراح الحديث قالوا إنّ بكاء عمر –رضي الله عنه– كان فرحًا وسرورًا بسماعه هذه البشرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([1]) ابن عثيمين، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١٠٠/٣).

([2]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الدعوات/ باب التعوذ من الفتن، ٢٥١/٤: رقم الحديث ٦٣٦٢.

([3]) أحمد الشافعي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (٢٦/١١).

([4]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٤٠٣/٢: رقم الحديث ٣٢٤٢.

-وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- لِأُبَيٍّ: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» **فَبَكَى**"[1]، قال أكثر شرّاح الحديث إنّ بكاء أُبَيّ كان فرحًا وسرورًا واستبشارًا بأنّ الله -سبحانه وتعالى- قد ذكر اسمه فدلّ بكاؤه على سروره، وبذلك قال أحمد بن إسماعيل الشافعي[2]، وزكريا الأنصاري[3]، ومنهم من قال إن بكاءه كان فرحًا أو خوفًا؛ أي: فرحًا بهذه البشرى، أو خوفًا من تقصيره في شكرها، وبذلك قال شمس الدين البِرماوي[4]، وأجمل ما قيل في شرح هذا الحديث هو شرح بدر الدين العيني، حيث قال: "وَأما بكاؤه فَلِأَنَّهُ استحقر نَفسه وتعجب وخشي؛ وَهَذَا لِأَن شَأْن الصَّالِحين إِذا فرحوا بِشَيْء خلطوه بالخشية"[5]؛ أي: إنّ بكاءه كان فرحًا ممزوجًا بشيء من الخوف والخشية.

-وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: "قَالَ لِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ قَالَ: «أَمْسِكْ» **فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ**"[6]، والشاهد من الحديث قوله: (فإذا عيناه تذرفان)؛ أي تسيلان دمعًا، قال ابن منظور: "ذَرَفَ الدَّمعُ: سَالَ"[7]، ويُحتمل أن يكون بكاء النبي- صلى الله عليه وسلم -كان فرحًا كما قال بذلك بعض شُرّاح الحديث، فقال بدر الدين العيني إنّ في بكاء النبي- صلى الله عليه وسلم- ثلاثة وجوه، والوجه الثالث منها: "أَنه بَكَى فَرحًا لقبُول شَهَادَة أمته -صلى الله عليه وسلم- يَوْم الْقِيَامَة وَقبُول تزكيته لَهُم فِي ذَلِك الْيَوْم الْعَظِيم"[8]، وقال

([1]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار/ بَابُ مناقب أبي بن كعب -رضي الله عنه-، ١٣/٣: رقم الحديث ٣٨٠٩.

([2]) انظر: أحمد الشافعي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (٣٦٢/٨).

([3]) انظر: الأنصاري، منحة الباري بشرح صحيح البخاري (٢٥٦/٨).

([4]) انظر: البِرْماوي، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (٣٧٢/١٠).

([5]) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣٠٩/١٩).

([6]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن/ باب {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، ٢٥١/٣: رقم الحديث ٤٥٨٢.

([7]) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذَرَفَ).

([8]) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٧٤/١٨).

شهاب الدين القسطلاني: "أو هو بكاء فرح لا بكاء جزع؛ لأنه تعالى جعل أمته شهداء على سائر الأمم"[١]، فتكون بذلك دلالة البكاء في هذا الموقف تحمل معنى الفرح.

المطلب الخامس

البكاء الدال على الحب

وقد يأتي البكاء للدلالة على الحب، وورد في صحيح البخاري حديث واحد يحمل هذه الدلالة، وهو:

-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ **يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- لِعبَّاسٍ: "يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا" فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ"[٢]، والشاهد من الحديث قوله: (يبكي ودموعه تسيل على لحيته)، ومن سياق الحديث تظهر لنا دلالة بكاء مغيث هي حبه لزوجته التي رغب في العودة إليها والزواج بها، والذي يدل على أنّ بكاءه كان حبًا هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعباس: "لا تعجب من حب مغيث بريرة...".

المطلب السادس

البكاء الدال على الندم

وقد يبكي الإنسان ندمًا على فعل مخطئٍ قام به أو على ذنب اقترفه، فيبكي ويطلب المسامحة ممن أساء إليه أو أخطأ في حقه، وورد في صحيح البخاري حديث واحد يحمل هذه الدلالة:

-حديث رواه البخاري في صحيحه عن الزهري، جاء فيه: "أَنَّ عَائِشَةَ، حُدِّثَتْ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، قَالَ: فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا"[٣]، فعندما علمت عائشة بذلك نذرت ألا تكلم ابن الزبير -وهو ابن أختها- أبدًا، وذلك تأديبًا له، فشعر عبد الله بن الزبير بالندم على ما قاله في حق خالته عائشة، وأراد أن

---

(١) شهاب الدين القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٨٣/٧).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الطلاق/ باب شَفَاعَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي زَوْجِ بَرِيرَةَ، ٥٤٩/٣: رقم الحديث ٥٢٨٣.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب/ باب الهجرة، ١٧٥/٤: رقم الحديث ٦٠٧٣.

يطلب العفو والسماح منها، فكلَّم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود ليكونا وسيطين له عند عائشة، فذهبا به إلى عائشة واستئذنوها بالدخول فأذنت لهم، "فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ **وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي**، وَطَفِقَ المِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ، وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولاَنِ: إِنَّ النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الهِجْرَةِ"[1]، فبكى عبد الله بن الزبير عندما دخل على عائشة ندمًا على عقوقه لها، ورجاءً في أن تسامحه وتكلمه، فدلّ بكاؤه على ندمه الشديد.

تبيّن في ختام هذا المبحث أنّ في صحيح البخاري الكثيرَ من الأحاديث التي تحمل معنى البكاء بدلالاته العديدة، فقد بان أنّ البكاء له عدة دلالات في صحيح البخاري كالحزن، والخوف، والغيرة، والخشوع، والفرح، والحب، والندم، وأظهرت الدراسة أنّ الأحاديث التي تحمل معنى البكاء الدال على الحزن هي أكثر دلالات البكاء حضورًا في أحاديث صحيح البخاري.

المبحث الثاني

دلالات أخرى لحركة العين

لغة العيون لها دلالات أخرى غير البكاء يتم من خلالها إيصال معانٍ عديدة يمكننا معرفتها من خلال النظر إلى الشخص وتحليل نظرات عيونه، ومن هذه الدلالات:

المطلب الأول

دالة الغمز

يحمل الغمز في اللغة أكثر من معنى؛ فقد يكون بمعنى الإشارة بالعين والحاجب والجفن، أو بمعنى العصر باليد والإشارة باليد[2]، وورد في صحيح البخاري حديثان يحملان هذه الدلالة، وهما:

–عَنْ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلاَمَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ –حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا –

([1]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب/ باب الهجرة، ١٧٥/٤: رقم الحديث ٦٠٧٣.

([2]) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (غَمَزَ).

فَغَمَزْنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ..."[١]، والشاهد من الحديث قوله (فغمزني) وأغلب شُراح الحديث فسروا الغمز –هنا– بالإشارة باليد، ومنهم من قال إن الغمز يحمل المعنيين الإشارة بالعين أو الإشارة باليد، مثل قول علي القاري: "فغمزني أحدهما؛ أي: أشار إليّ بالعين، أو بالمَدّ"[٢].

–وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثَ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَانْتَهَرَنِي، وَقَالَ: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ –عَلَيْهِ السَّلاَمُ– فَقَالَ: «دَعْهُمَا»، فَلَمَّا غَفَلَ **غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا**"[٣]، نلاحظ أنّ عائشة –رضي الله عنها– أشارت إلى الجاريتين دون أن تكلمهما عن طريق الغمز بالخروج، والجاريتان فهمتا هذا الأمر عن طريق الإشارة فخرجتا.

المطلب الثاني

العين الشاخصة

وغالبًا ما تكون العين شاخصة عند الموت، قال ابن منظور: "وشَخَصَ الرجل ببصره عند الموت يَشخَصُ شُخُوصًا: رفعه فلم يَطْرِف"[٤]، وورد في صحيح البخاري حديث واحد يحمل هذا المعنى، وهو:

–عن عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–، قَالَتْ: "**شَخَصَ بَصَرُ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم–** ثُمَّ قَالَ: "فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى" ثَلاَثًا..."[٥]، فقد شخص بصر النبي –صلى الله عليه وسلم– عند الموت وهو يقول في الرفيق الأعلى، قال بدر الدين

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس/ باب مَن لم يُخَمِّس الأسلاب ومن قتل قتيلًا فله سلبه من غير أن يُخَمِّس وحُكْم الإمام فيه، ٣٧١/٢: رقم الحديث ٣١٤١.

(٢) القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٥٧٩/٦).

(٣) البخاري: صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب في العيدين والتجمل فيهما، ٢٥٦/١: رقم الحديث ٩٤٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (شَخَصَ).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم/ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذًا خليلًا، ٥٣٠/٢: رقم الحديث ٣٦٦٩.

العيني تعقيبًا على هذا: "شخص بصر النبي –صلى الله عليه وسلم: من الشخوص وَهُوَ ارْتِفَاع الأجفان إِلَى فَوق وتحديد النّظر وانزعاجه"(١).

المطلب الثالث

دالة التتبع

وقد تحمل نظرات الإنسان معنى التتبع والنظر بخفية، وورد في صحيح البخاري حديثان يحملان هذه الدلالة، وهما:

–ورد هذا المعنى في صحيح البخاري في حديث كعب بن مالك الطويل، يقول كعب في الحديث: "وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، **فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ**، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي..."(٢)، هذا جزء من حديث كعب بن مالك –رضي الله عنه– يروي فيه تفاصيل قصة تبوك وما جرى معه في هذه القصة، حيث تخلّف هو وصحابيان عن غزوة تبوك فأمر رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– صحابته بمقاطعتهم حتى نزل قرآنًا من فوق سبع سماوات يُظهر صدقهم في التوبة، والشاهد من الحديث قوله: (فأسارقه النظر)؛ أي: إنّ كعبًا –رضي الله عنه– كان يأتي لمجلس رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وينظر إليه بخفية؛ ليرى هل يعفو عنه رسول الله ويسلم عليه أم لا؟ فدلالة النظر هنا التتبع بخفية، ويؤكد ذلك بدر الدين العيني في شرحه لهذا الحديث فقال في معنى (فأسارقه النظر): ؛"أي: أنظر إليه في خفية"(٣).

–وفي حديث طويل جاء فيه: "... ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ **يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِعَيْنَيْهِ**، قَالَ: فَوَاللَّهِ! مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ، ابْتَدَرُوا

---

(١) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨٦/١٦).

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، ١٩٠/٣: رقم الحديث ٤٤١٨.

(٣) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٥٣/١٨).

أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ، كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ، خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ..."[١]، والشاهد من الحديث قوله: (يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه)، بمعنى أنه ينظر إليهم عن بُعد وخفية ويطيل النظر، قال أحمد الشافعي في معنى يرمق بعينيه: "ينظر إليهم خفية"[٢] فدلّ النظر –هنا– على التتبع عن بعد وبخفية.

المطلب الرابع

دالة الإعراض

وقد تحمل نظرات الإنسان معنى الإعراض عن الشيء، وورد في صحيح البخاري حديث واحد يحمل هذه الدلالة، وهو:

–ورد هذا المعنى في حديث كعب الطويل في المقطع السابق نفسه –الذي ورد في دالة التتبع– في قوله: "وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي"؛ أي: بمعنى أنه أعرض عنه ببصره لكونه غاضبًا منه ومقاطعًا له، وبذلك قال حمزة قاسم في شرح هذا الحديث: "أعرض عني؛ أي صرف نظره عني؛ ليظهر لي الغضب والمقاطعة"[٣].

المطلب الخامس

دالة طلب الشيء

بمعنى أنك إذا لاحظت نظرات أي شخص، فإنك ستلحظ من خلال نظراته أنه يريد شيئًا، وورد في صحيح البخاري حديث واحد يحمل هذه الدلالة، وهو:

–ورد ذلك في حديث عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– حيث قالت: "إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ؛ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– **فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ،**

([١]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٢٤٨/٢: رقم الحديث ٢٧١٣.

([٢]) أحمد الشافعي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (٣٣٦/٥).

([٣]) قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (١٤/٥).

فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَتَنَاوَلْتُهُ..."[١]، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يريد السواك، وفطنت عائشة لذلك من خلال نظراته دون أن يتكلم، فدلالة النظر –هنا– طلب الحصول على الشيء.

ويظهر مما سبق في هذا المبحث أنّ حركة العين لها دلالات أخرى عديدة غير البكاء قد وردت في أحاديث صحيح البخاري، وقد تكون هناك دلالات أخرى لحركة العين غير المذكورة في هذا المبحث؛ إلا إنّنا اقتصرنا في دراسته على جمع الدلالات الموجودة في صحيح البخاري.

وتبين –للباحثين– مما سبق في هذه الدراسة أنّ لغة العيون الصامتة ذات أهمية كبيرة في إيصال المعنى المراد منها، ولا تقل أهميتها عن اللغة المنطوقة؛ بل قد تكون لغة العيون الصامتة أبلغ، وأكثر أثرًا من اللغة المنطوقة.

وكشفت الدراسة –أيضًا– بأنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام –رضي الله عنهم– قد استعملوا لغة العيون الصامتة بشكل كبير، وهذا يشير إلى مدى أهمية هذه اللغة في إيصال المعنى المراد على الوجه المطلوب.

النتائج والتوصيات:

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وكل من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وفي نهاية هذه الدراسة سأتحدث عن أهم نتائجها، إضافة إلى عدد من التوصيات بناءً على عملية البحث والاستقصاء في هذا الموضوع.

أولًا– النتائج: وتتلخص النتائج في الآتي:

١– تتعدد صور التواصل بين البشر، والتي لا تقتصر على الكلام المنطوق فحسب، بل إنّ اللغة الصامتة لها أهمية كبيرة لا تقل أهميتها عن الكلام المنطوق.

٢– كشفت الدراسة عن اهتمام السنة النبوية الشريفة باللغة الصامتة، وأظهرت استعمال النبي –صلى الله عليه وسلم– لهذه اللغة في كثير من المواقف؛ من أجل إيصال دلالة معينة.

٣– إنّ إهتمام بعض المحدثين بمفهوم اللغة الصامتة فتح المجال أمام الباحثين للتوسع في البحث حول هذا الموضوع.

([١]) البخاري: صحيح البخاري، كتاب المغازي/ باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٢٠١/٣: رقم الحديث ٤٤٤٩.

٤- تبيّن للباحث وجود قواسم مشتركة بين مفهوم اللغة الصامتة، ومفهوم السيمياء.

٥- للغة العيون في صحيح البخاري دلالات متنوعة، وهي دالة البكاء بمعانيه المختلفة، ودالة الغمز، ودالة الاحتضار، ودالة التتبع، ودالة الإعراض، ودالة طلب الشيء.

٦- حرَص النبي -صلى الله عليه وسلم- على تنويع طرق إيصال المعاني للسامع، فلم يقف عند حد الكلام المنطوق، وإنما تضمن صحيح البخاري مواقف للنبي -صلى الله عليه وسلم- تم فيها توظيف اللغة الصامتة، وبيان أهمية هذا النوع من التواصل.

٧- يُستدل من خلال الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح البخاري على إقرار النبي صلى الله عليه وسلم بأهمية اللغة الصامتة وضرورة توظيفها في العملية التواصلية بين البشر.

٨- إنّ اللغة الصامتة تلعب دورًا كبيرًا في إقناع الآخرين والتأثير فيهم وإيصال الأفكار إليهم.

ثانيًا- التوصيات: أما المقترحات والتوصيات فيمكن إجمالها في الآتي:

١- موضوع اللغة الصامتة من الموضوعات المهمة، حيث لا يكاد يمر علينا يوم إلا ونستخدم فيه هذه اللغة باستمرار، وعليه ينبغي للباحثين والدارسين إيلاء هذا الموضوع أهمية كبيرة وتوسيع دائرة البحث فيه.

٢- ضرورة وضع مساقات علمية في الجامعات والمعاهد في أقسام اللغة العربية ضمن خطة المساقات؛ من أجل لفت أنظار طلبة العلم إلى أهمية هذا الموضوع.

٣- حث المعلمين والمربين وسائر فئات المجتمع على استخدام أساليب اللغة الصامتة في التدريس، من خلال بيان دلالاتها، وتوضيح وظائفها التعليمية، ومن خلال تصميم برامج تدريبية للمعلمين والدعاة وسائر الفئات لمساعدتهم في استخدام اللغة الصامتة في خطابهم التعليمي والدعوي.

٤- كذلك لا بد من لفت الأنظار إلى أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قد استخدم اللغة الصامتة في مواقف كثيرة؛ لذا لا بد من ضرورة الاقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في مثل هذه المواقف

المصادر والمراجع:

١. **القرآن الكريم.**

٢. أحمد الشافعي، أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني الشافعي ثم الحنفي. (١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م). *الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري*. تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية. ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣. بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي. (د.ت). *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*. د.ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٤. برابارابيس، آلان. (٢٠١١م). *لغة الجسد*. ترجمة: عبد الحكم أحمد الخزامي. ط١. القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع.

٥. بنكَراد، سعيد. (٢٠١٢م). *السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها*، ط٣. سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

٦. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م). *البيان والتبيين*. تحقيق: درويش جويدي. د.ط. بيروت: المكتبة العصرية.

٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت). *الخصائص*. تحقيق: محمد علي النجار. د.ط. بيروت: عالم الكتب.

٨. حجازي، محمود فهمي. (٢٠٠٣م). *أسس علم اللغة العربية*. د.ط. مصر: دار الثقافة للطباعة والنشر.

٩. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (١٣٧٩هـ). *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. تحقيق: عبد العزيز بن باز. د.ط. بيروت: دار المعرفة.

١٠. الحسيني، إسحاق. (١٤٠٠هـ -١٩٨٠م). اللغة الصامتة. *مجلة مجمع اللغة العربية*. ج٤٥.

١١. الحموز، عبد الفتاح. (١٤٣٢هـ -٢٠١١م). *سيميائية التواصل والتفاهم في التراث العربي القديم*. ط١. الأردن: دار جرير للنشر والتوزيع.

١٢. الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد. (٢٠٠٢م). *دليل الناقد الأدبي*. ط٣. المغرب: المركز الثقافي العربي.

١٣. الزمخشري، العلامة جار الله محمود بن عمر. (د.ت). الفائق في غريب الحديث. د.ط. د.م. د.ن.

١٤. زكريا الأنصاري، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي المصري الشافعي. (١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م). *منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى تحفة الباري*. تحقيق: سليمان العازمي. ط١. الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع.

١٥. سكر، ماجد رجب العبد. (يونيو ٢٠١٤م). لغة الجسد وأدواتها في القرآن الكريم. *مجلة جامعة الأمة*. ع٤.

١٦. شاكر، جودت. (٢٠١٢م -١٤٣٣هـ). *الاتصال في علم النفس*. ط١. عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

١٧. شاهين، عبد الصبور. (١٤١٣هـ -١٩٩٣م). *في علم اللغة العام*. ط٦. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٨. شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد بن عبدالدائم بن موسى النعيمي العسقلاني المصري الشافعي. (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م). *اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح*. تحقيق: لجنة مختصة من المحققين. ط١. سوريا: دار النوادر.

١٩. شهاب الدين القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري أبو العباس. (١٣٢٣هـ). *إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري*. ط٧. مصر: المطبعة الكبرى الأميرية.

٢٠. شولز، روبرت. (١٩٩٤م). *السيمياء والتأويل*. ترجمة: سعيد الغانمي. ط١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. (١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م). *جامع البيان في تأويل القرآن*. تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط١. د.م: مؤسسة الرسالة.

٢٢. عبد التواب، رمضان. (١٤١٧هـ -١٩٩٧م). *التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه*. ط٣. مصر: مكتبة الخانجي.

٢٣. ابن العثيمين، محمد بن صالح. (١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م). *فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام*. تحقيق: صبحي رمضان، وأم إسراء بيومي. ط١. د.م: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع.

٢٤. أبو عرقوب، إبراهيم. (١٩٩٣م). *الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي*. ط١. الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

٢٥. علي القاري، علي بن محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري. (١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م). *مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح*. ط١. بيروت: دار الفكر.

٢٦. أبو عياش، نضال. (٢٠٠٥م). *الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق*. ط١. العروب: كلية فلسطين التقنية.

٢٧. غباري، محمد سلامة، وعطية، السيد عبد الحميد. (١٩٩١م). *الاتصال ووسائله بين النظرية والتطبيق*. د.ط. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

٢٨. القرطبي، أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. (د.ت). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد إبراهيم الحفناوي، ومحمود حامد عثمان. د.ط. القاهرة: دار الحديث.

٢٩.قاسم، حمزة محمد. (١٤١٠هـ -١٩٩٠م). *منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري*. راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط. د.ط. دمشق: مكتبة دار البيان.

٣٠.قاسم، سيزا، وأبو زيد، نصر. (د.ت) *أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا*. د.ط. القاهرة: دار إلياس العصرية.

٣١.أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد. (٢٠٠١م). *تهذيب اللغة*. تحقيق: محمد عوض مرعب. ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣٢.أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد. (د.ت). *تهذيب اللغة*. تحقيق: الأستاذ أحمد عبد العليم البردوني. د.ط. د.م: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٣٣.ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعي. (١٤١٤هـ). *لسان العرب*. ط٣. بيروت: دار صادر.

٣٤.وافي، علي عبد الواحد. (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م). *اللغة والمجتمع*. ط٤. السعودية: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع.

٣٥.ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. (١٤١٤هـ،١٩٩٣م). *معجم الأدباء= إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*. تحقيق: إحسان عباس، ط١. بيروت: دار المغرب الإسلامي.